

## ظافر بن عبد الله الشهري

كلية التربية - جامعة الملك فيصل

الأحساء - المملكة العربية السعودية

### الملخص:

يتناول هذا البحث الحديث عن مكة المكرمة في العصر القديم - ما قبل الإسلام - ويتمحور في مقدمة قصيرة عن مدلول الكلمات في سياقها النصي ومحيطها المعرفي ليبين أن مكة ، هذا المسمى الرمزي الذي جمع قداسة الزمان والمكان وحرمة الحياة والأحياء له من الدلالات الروحية والمعاني القدسية ما جعل مقدارها عالياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ويقف عند أسماء مكة من خلال ماورد في القرآن الكريم وما ذكره أصحاب التاريخ ، ويتحدث عن نشأة مكة وتاريخ هذه النشأة ، وبناء البيت الحرام على يد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ويستعرض بعضاً من تاريخ القبائل التي سكنت مكة المكرمة بعد بناء الكعبة وظهور ماء زمزم ، ويركز على قريش القبيلة التي اهتمت كثيراً بمكة ، والتي بعث منها النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - عندما أصبحت مكة مهياًة لظهور هذا النبي من أشرف البيوت فيها . ويستعرض البحث بعض الأشعار التي ارتبطت بالأحداث التاريخية كحادثة إجلاء خزاعة لجرهم من مكة ثم غلبة قريش عليها وانتزاع السيادة على مكة من يد خزاعة ، وما قيل في حلف الفضول ، وحادثة الفيل ، وحماية بني هاشم للرسول - صلى الله عليه وسلم - عند بعثته وبعض ما قيل في شرف مكة على ألسنة الشعراء ليصل البحث إلى أهم النتائج التي تم استخلاصها من هذه القراءة .

## مقدمة:

إن مدلول الكلمات في سياقها النصي بحر عميق لا يسبر أغواره ولا يسبح في عميق أسرار معانيه وفضاءاتها الواسعة إلا من أتاه الله سعة من العلم ، وبسطة في الفهم ، وعندها يشعر بلذة المعرفة التي لا تتكشف أسرارها وخفاياها إلا لمن يمعن النظر في أودية المعاجم وشعاب الدلالات اللغوية والاصطلاحية ، وإذا زاد اهتمام المرء بالشئ استطاع أن يصل إلى قناعة بان المعاني للكلمات باب من المعرفة قد نحسها أو نشعر بها ، ولكننا قد لا نحسن الحديث عنها - أحيانا - وقد سئل بعض المفكرين عن مسألة دقيقة فأجاب إنني أعرفها جيدا ولكن بشرط أن لا يسألني عنها أحد <sup>(١)</sup>

نخلص مما تقدم إلى أن من الفرضيات الواجبة على كل مسلم أن يعي بالضرورة أن (مكة) هذا الرمز الذي جمع قداسة الزمان والمكان ، وحرمة الحياة والأحياء له من الدلالات الروحية والمعاني القدسية والثوابت التاريخية والحقائق العقلية والنقلية ما جعل مقدار هذه المدينة في نفوس العرب قبل الإسلام عاليا ، وتؤكد هذا المقدار عند ملايين المسلمين منذ بعثة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فمنذ أن وطئتها قدما إبراهيم - عليه السلام - وأسكن بها من ذريته ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَمْرْدَى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> وهي تحفر وجودها في أعماق التاريخ ، وتتغلغل في سويداء القلوب ، حتى - شاء الله - عز وجل أن يحتضن هذا الوادي المجذب نبات التوحيد ، ويتعهده بالسقيا دعوة وجهاداً عبر الحقب والأزمان ، وأن يكون الأمر هناك - في مكة - لله حماية ورعاية ، وليس للبشر على نحو ما توحى به عبارات عبد المطلب " أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه " <sup>(٣)</sup> فكانت حادثة الفيل ، وهلاك أبرهة وجيشه دليلا على هذه الحقيقة الثابتة. <sup>(٤)</sup> ولعلنا في الصفحات التالية نقف على مكانة هذه البلدة "مكة" عند المؤرخين والشعراء من خلال مصادر التاريخ والشعر في العصر القديم.

### مكة المكرمة ... المسمى والمدلول:

أورد القرآن الكريم لمكة أسماء يمكن بيانها على النحو التالي:

١. (مكة) قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾<sup>(٥)</sup>
٢. (بكة) قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٦)</sup>
٣. (البلد الأمين) قال تعالى: ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۖ وَطُورِ سِينِينَ ۚ وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ ﴾<sup>(٧)</sup>
٤. (أم القرى) قال تعالى: ﴿ وَلْتُنْذِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾<sup>(٨)</sup>
٥. (البلد) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٥).
٦. ( البيت) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا ﴾ (سورة البقرة: ١٢٤).

وقد أورد مؤرخو الإسلام نحواً من اثني عشر اسماً ، وكانوا يقولون : إن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى ، وإن مكة لذلك<sup>(٩)</sup> وقد تعددت كذلك تفسيرات الدارسين قديماً وحديثاً حول سبب تسمية مكة بهذه الأسماء ، فيرى بعض علماء المسلمين إنما سميت مكة بذلك لقلة مائها يقولون : امتك الفصيل ضرع أمه إذا امتصه ، ويقول بعضهم : سميت مكة لأنها تمك الذنوب ، أي تذهب بها ، أو لأنها تمك الفاجر- أي تخرجه منها. قال الراجز:

يا مكة الفاجر مكي مكا ولا تمكي مذحجا وعكا

وقيل لأن العرب في الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فتمك فيه أي نصفر صفير المكاء ، وهو طائر يأوي الرياض ، قال أحد الشعراء:

ألا أيها المكّاء مالك هاهنا      ألاء ولا شيخ فأين تبيض  
فأصعد إلى أرض المكاكي واجتنب      قرى الشام لاتصبح وأنت مريض<sup>(١٠)</sup>

وقيل إنها سمّيت "بكّه" لأن الناس فيها يبك بعضهم بعضا أي يدفع، ونقل عن بطليموس الجغرافي اليوناني أن اسمها (ماكورابا) وهو مشتق من الاسم السبئي (مكوارابا) ومعناه مقدس أو حرام.

وفي مكة أماكن أخرى لها من القدسية عند المسلمين ما يجعلها ماثلة في وجدانهم حاضرة في قلوبهم، وترجع هذه القدسية إلى صلتها المباشرة بالمعتقدات الدينية. ومن أهم هذه الأماكن جبل أبو قبيس، وجبل عرفات، وجبل حراء. فقد قيل إن الكعبة بنيت من تلك الجبال. يقول الحسن البصري في ذلك: (وقيل بنيت الكعبة من أربع جبال، جبل حراء وجبل أبي قبيس وجبل منى وجبل عرفات. فأكرم الخليل بالإجابة على جبل أبي قبيس، وأكرم الذبيح على جبل منى بالفدية، وأكرم آدم - عليه السلام - على جبل عرفات بقبول التوبة، واجتماعه مع حواء، وأكرم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - على جبل حراء بالنبوة.<sup>(١١)</sup>

#### مكة المكرمة التاريخ والنشأة :

إن الحديث عن مكة المكرمة - تاريخاً ونشأة - ليس من السهل حصره في وريقات معدودات، ذلك أن المسافة الزمانية بين نشأة مكة كمكان احتضن البشر وبين حوادث التاريخ قد تتفاوت في رواياتها وصحتها تبعاً لعمق المسافة الزمانية والتاريخية التي تفصلنا عن أوليات نشأة مكة، هذه البلدة المهيبة المباركة التي لها من دلالات التقدير والتعظيم عند كل مسلم ما يجعلها مكاناً له خصوصية متأكدة منذ أن وطئت أقدام البشر في علمه - عز وجل - .

يرى بعض المؤرخين أن مكة عرفت من أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عصر إبراهيم - عليه السلام - وأنها كانت مدينة قديمة في الطريق الذي يصل مابين الجنوب والشمال ، كما ذكر بعضهم أيضا أنه كانت هناك مواضع عدة في القسم الغربي من الجزيرة العربية كانت ذات حرمة وقدسية في أنظار العرب ، وكانوا يقصدونها من أماكن بعيدة للتبرك بها <sup>(١٣)</sup> وفي اعتقادي أن المعول عليه في هذا الشأن أن وصول سيدنا إبراهيم مع زوجته وابنه إسماعيل - عليهم السلام - إلى مكة يمكن أن يعتمد بداية واضحة لتاريخ مكة . وقد جاء نص القرآن الكريم موضحا خلو هذا المكان من البشر قبل ذلك. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (سورة إبراهيم الآية ٣٧)

فالمكان جذب لازرع فيه ، ثم قال تعالى في كمال الآية: ﴿ فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ (سورة إبراهيم الآية ٣٧) فالمكان إذا خلاء وقفر لا يوجد فيه بشر، ومن هنا يمكن القول بكل اطمئنان : أن مكة قبل هذه الهجرة المباركة لأبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - وإسكان بعض ذريته بهذا الوادي كانت مكانا مجديا لاماء فيه ولازرع ولا بشر. وفي هذا الوادي المجذب وفي سراديب المجهول في علم البشر ومفهومهم الضيق أسكن إبراهيم - عليه السلام - من ذريته في هذا الوادي الخالي من مقومات الحياة ، وقال عندما ذهب وتركهم هناك ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (سورة إبراهيم - آية ٣٨) ولكنه أوكلهم إلى عناية الله وتقدير الرحمن - سبحانه وتعالى - الذي لا تضيع ودائعهم، وعندها بدأت الحياة مع هاجر وإسماعيل في مكة ونبتت زمزم هذا الماء المبارك إيذانا بفجر جديد وتاريخ جديد يبدأ لهذه البلدة المقدسة. وكانت قبيلة جرهم تضرب أطناها بمكان ليس بالبعيد عن هذا الوادي "مكة" ، وعلموا بوجود الماء في هذا المكان، وحيث يوجد

الماء توجد الحياة، ولهذا رغب زعماء هذه القبيلة في نقل بيوتهم وقبيلتهم إلى مكة واستأذنوا هاجر - فيما تذكر الروايات - فأذنت لهم واستقرت القبيلة في مكة واحتضنت إسماعيل - عليه السلام - حيث نشأ بينها وأصهر بها، ومنها تعلم العربية، فكان نسله من هذه المصاهرة هم العرب المستعربة.<sup>(١٣)</sup>

### بناء البيت الشريف :

تذكر مصادر العصر القديم أن الله تعالى أمر إبراهيم - عليه السلام - بعدما ولد له إسماعيل وإسحاق. ببناء بيت له يعبد فيه ويذكر، فلم يدر إبراهيم في أي موضع يبنيه إذ لم يكن - عز وجل - بين له ذلك، فضاق ذرعا فقليل : إن الله بعث إليه السكينة لتدله على موضع البيت فمضت به ومعه هاجر وزوجه وابنه إسماعيل وهو طفل صغير إلى مكة. وقال بعضهم إن الله بعث إليه جبرائيل - عليه السلام - حتى دله على موضع البيت وبين له ما ينبغي أن يعمل.<sup>(١٤)</sup> وهناك روايات أخرى أغلبها تصب في هذا السياق. ثم إن إبراهيم بعد حين أخذ يبني البيت هو وابنه إسماعيل - عليهما السلام - قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(١٥)</sup> وقد رفعا قواعد البيت حيث بدت لهما علامات خاصة في نقطة مختارة للبناء على بعد خطوات من بئر زمزم، وكان هذا إيذانا بإنشاء مكة على يدي إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وبعد أن فرغ إبراهيم من بناء البيت أذن في الناس بالحج امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾<sup>(١٦)</sup> فيقال : إنه أسمع صوته من في الدنيا ومن سيولد في أصلاب الرجال وأرحام الأمهات، فأجابه من سبق في علم الله أنه سيحج لبيك لبيك<sup>(١٧)</sup>.

وزادت قبيلة جرهم رفعة ومكانة ببركات هذا البيت ردحا من الزمن إلى أن استخفوا بأمره، فسلط الله عليهم من أجلاهم عن مكة، وكان ذلك فيما تذكر

المصادر أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي، وقد ترك ذلك جرحاً غائراً في قلوب الجرهميين كما يصوره أحد زعمائهم وهو عمرو بن مضاض بن عمرو الجرهمي قائلًا: <sup>(١٨)</sup>

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
ولم يتربع واسطاً فجنوبه	إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضر
بلى نحن كئلاً أهلها فأزالنا	صروف الليالي والجدود العواثر
وكئلاً ولاة البيت من بعد نابتي <sup>(١٩)</sup>	نطوف بهذا البيت والخير ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة	كذاك بأمر الله تجري المقادر

ومن ذلك التاريخ أصبحت مكة عند العرب مساحة تحمل من الدلالات والقيم ما جعلها مكاناً مقدساً. تسند هذه المكانة القيم الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي جعلت لهذه البلدة وسكانها خصوصية ليست لسواهم على مر السنين وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولما جاء نور الإسلام، ونزل القرآن الكريم على محمد - صلى الله عليه وسلم - في مكة كانت تسكن هذه البلدة قبيلة قريش، فأشرق لها نور جديد وعهد جديد وشرف جديد اكتملت أطرافه في شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة للهجرة عندما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة فاتحاً شاكرًا متواضعًا لله رحيمًا بقومه مستشعرًا حرمة مكة وهيبتها، فحطم أشكال الوثنية في هذه البلدة ليكون الدين كله لله وتبقى مكة بلدًا حرامًا إلى أن تقوم الساعة <sup>(٢٠)</sup>. فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد شجرة لم تحل لأحد كان قبله ولا بعده - صلى الله عليه وسلم - .

### مكة المكرمة عند شعراء ما قبل الإسلام:

حينما نبجر من خلال تلك السياقات التاريخية مع الشعراء الذين تحدثوا عن مكة البلد الحرام فيما قبل الإسلام، فإننا سنجد لمكة خصوصية ليست لغيرها من البلدان، هذه الخصوصية استوعبها الشعراء في العصر القديم، فالمقدس مكة - بحدودها المعروفة - على وجه العموم، والكعبة المشرفة على وجه الخصوص، وارتباط مكة بما حولها من القرى المجاورة جعلها حاضرة في وجدان الشعراء، وهو حضور له أبعاد يمكن أن نقول عنها: انها تتمثل في الدلالات الروحية التي لا يعدمها الناقد في جميع الأغراض الشعرية حينما يستدعي الشاعر من أمر مكة ما يجده حاضرا في قاموسه الشعري، وعندها يقفز الجانب الروحي والهيبة الدينية إلى وجدانه، فيتوقف عند مكة الحرم بما أضافته هذه الحرمية على المكان من قداسة ليأمن عندئذ من عاش ويعيش على ثرى مكة . قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾<sup>(٢١)</sup> وقال تعالى: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾<sup>(٢٢)</sup>

ولهذا استوعب الشعراء في العصر القديم هذه الحرمية وهذه القداسة لمكة جاء ذلك في جميع أغراضهم الشعرية بما فيها الغزل، فهذا أحدهم يقول في معرض غزله:

حور حرائر ماهممن بريية      كظباء مكة صيدهن حرام<sup>(٢٣)</sup>

وإذا كان هذا البيت من القصيدة قد جاء في سياق نص غزلي فإنه ليس لمكة من هذا الشعر سوى الدلالة الروحية التي أضفت على المعنى بعدا آخر يمكن أن نقول عنه: إن الشاعر استلهم مكة وهي جماع القيم والمثل العليا في مستواها الروحي الذي صح معه أن توصف بالمكرمة .<sup>(٢٤)</sup>



لقد شهدت مكة أحداثاً كبيرة قبل الإسلام، وهذه الأحداث ربما أذكرتها تلك الصراعات التي كانت تنشأ بين القبائل العربية، وربما كان للأحداث الخارجية أثرها الواضح في وجدان الشعراء الذين علموا بمكانة مكة في النفوس، ولذلك كان الصراع بين القبائل القريبة من مكة يدور حول السيطرة على هذه البلدة المباركة لما يعلمه العرب من أن من يتم له ذلك سوف ينال شرف الرئاسة الروحية فضلاً عن الرئاسة السياسية عند العرب فيما قبل الإسلام<sup>(٢٥)</sup>، وما يترتب على هذه السيادة من تفوق اقتصادي واجتماعي في ظل الحياة في مكة إذ كان لالتقاء الناس فيها سواء لزيارة الأماكن المقدسة أو للتجارة أهمية في إنعاش الحياة الفكرية والاقتصادية وهو مامن قريشاً دراية بالتجارة سواء على المستوى الخارجي - رحلة الشتاء والصيف - أم على المستوى الداخلي، وبخاصة أن سوق عكاظ كانت تقام كل عام في مكان ليس بالبعيد عن مكة إضافة إلى أنها تقام في الأشهر الحرم مما يعطي الشعراء والخطباء حرية أوسع في القول. وترجع أهمية هذه السوق لمكة - فضلاً عن كونها تجمعاً تجارياً - إلى أنها كانت إحدى المنابر الأدبية التي يتم من خلالها رفع الصوت شعراً وخطابة بالمظالم والنواح والشكوى والإشادة والمفاخرة والمناقضة وتخليد المآثر في حرية تامة لما للشعر من أهمية عند العرب واتصاله بالمتغيرات السياسية، وإنشاده في المحافل العامة يجعل له من التأثير والصور ما يحقق به الشاعر غايته. فهذه (هند بنت عتبة) تفد من مكة إلى سوق عكاظ لكي تماثل (الخنساء) التي صدحت بشعرها باكية على أبيها وأخويها في عكاظ، فإذا بهند تبكي قتلى قريش في بدر وتعظم من مصيبتها حيث ينتشر شعرها بين العرب . نجدها تقول:

أبكي عميد الأبطحين كليهما	وحاميهما من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي	وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب	وفي العز منها حيث ينمى عديدها <sup>(٢٦)</sup>

وكانت هذه السوق تعقد قبيل الحج، ومن أراد الحج سهل عليه أن يجمع بين هدفه الديني ومآربه التجارية، إذ كان موعد انعقادها من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، ثم ينصرف الناس إلى مكة، فيقيمون بها عشرة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز ثم إلى عرفة<sup>(٢٧)</sup>.

ولا بد أن سوق عكاظ شهدت شعرا كثيرا لم تكن مكة غائبة عنه بشعرائها وأحداثها. فالقبائل العربية في طول الجزيرة وعرضها تتجه أنظارها إلى الكعبة، وإلى من له الغلبة والحكم في مكة من القبائل، ونحن نعلم أن الشعر قد سجل خروج قبيلة جرهم من مكة عندما أجبرتهم خزاعة على الخروج منها، فكان الشعر مصورا لهذه الحادثة، كما مر معنا في قصيدة عمرو بن مضاظ الجرهمي ومنها :

وكنا ولاية البيت من بعد نابت	نطوف بباب البيت والخير ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة	كذلك بأمر الله تجري المقادر
فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة	كذلك عضتنا السنون الغواير
فسحت دموع العين تجري لبلدة	بها حرم أمن وفيها المشاعر <sup>(٢٨)</sup>

ويرى بعض المؤرخين أن قبيلة جرهم قامت على ولاية البيت ثلاثمائة سنة، ولكنهم استحلوا مكة وأفسدوا في الحرم، فأخرجوا، وفي هذا يقول عمرو بن مضاظ الجرهمي كذلك:

فياليت شعري هل يعمر بعدنا	جياذ ومفضي سيله والظواهر
وهل فرج يأتي بشيء نريده	وهل جزع ينجيك مما تحاذر <sup>(٢٩)</sup>

ويقول في قصيدة أخرى، يصور عمق المأساة التي خلفها في نفوسهم خروجهم من مكة :

إنا كما كنتم كُنّا فغيرنا      دهر فسوف كما صرنا تصيروننا  
 حثوا المطي وأرخوا من أزمتهَا      قبل الممات وقضوا ماتقضونا  
 قد مال دهر علينا ثم أهلكنا      بالبغي فيه وبدء الناس تأسوننا<sup>(٣٠)</sup>

وهذه الأبيات كما نلاحظ تصور شعور الألم والاستسلام للأمر في قناعة تامة بأن خسارتهم كبيرة، حيث خرجوا من مكة دون أن يكون لديهم أدنى شعور بالعودة إليها مرة أخرى، ثم آل أمر مكة بعد ذلك إلى قبيلة خزاعة، تحت أمرة رجل منهم يقال له (عمرو بن لحي بن ربيعة)، وكان قد ذهب شرفه كل مذهب، له كلمة مسموعة في قومه وصيت عند العرب وكان أمره مطاعا، فغير دين إبراهيم وجلب الأصنام إلى مكة وألحد فيها وتجبر هو وقومه وأفسدوا الحنيفية التي كانت تعبد ربا واحدا فقال أحد شعراء ذلك العصر:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة      شتى بمكة حول البيت أنصبا  
 وكان للبيت رب واحد أبدا      فقد جعلت له في الناس أربابا  
 لتعرفن بأن الله في مهل      سيصطفي دونكم للبيت حجابا<sup>(٣١)</sup>

وقد أراد أحد شعراء جرهم أن ينصحه ويبين له حرمة مكة وأن من أراد أن يظلم فيها أحدا أو يلحد فإن مصيره الهلاك والخروج منها قائلا :

يا عمرو لاتظلم بمكة إنها بلد حرام  
 سائل بعاذ أين هم وكذاك تحترم الأنام  
 وبني العماليق الذين لهم كان السوام

ولكن عمرو بن لحي لم يتعظ من هذه النصيحة الصادقة وإنما أمر بإخراج الشاعر من مكة ، فقال متشوقا إليها :

ألا ليت شعري هل أبیتن ليلة	وأهلي معاً بالمأزمین حلول <sup>(٣٢)</sup>
وهل أرین العیس تنفخ فی البری	لها بمنی بالمحرمین ذمیل
منازل کنا أهلها فأزالنا	زمان بنا فیما أراه یحول
مضى أولونا قانعین بشأنهم	جميعا وغالتنا بمكة غول <sup>(٣٣)</sup>

ولیس ثمة من شک فی أن الظلم والإلحاد بمكة أمره عظیم عند الله عز وجل ،  
ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَبْكُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ  
الْعَلِيمِ ﴾<sup>(٣٤)</sup>

وقد استشعر عرب ما قبل الإسلام هذه القداسة للبيت ردحا من الزمن وهم يدينون  
بالحنيفية ملة إبراهيم إلى أن جعلوا هناك أصناما اتخذوها وسائط تقربهم إلى الله زلفى  
حسب زعمهم الخاطئ ومن هنا ظهرت الوثنية في جزيرة العرب. ومع هذا كله فإنهم  
كانوا ينهون عن الظلم في مكة بأي شكل من الأشكال ، يظهر هذا من قول (سبيعة  
بنت الأحب) زوج عبد مناف بن كعب تنصح أحد أبنائها وتبين له عاقبة الظلم في مكة :

أبني لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير  
وأحفظ محارمها بني ولا يغرنك الغرور  
أبني من يظلم بمكة يلحق أنواع الشرور  
أبني يضرب وجهه ويلج بخديه السعير  
أبني قد جربتها فوجدت ظالمها يبور

اللّٰهُ أَمْنَهَا وَمَا بَنَيْتَ بِعَرَصَتِهَا قُصُورَ  
وَاللّٰهُ أَمْنٌ طِيرَهَا وَالْعَصَمُ تَأْمَنُ فِي ثَبِيرِ  
فَاسْمِعْ إِذَا حَدَّثْتَ وَافْهَمْ كَيْفَ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ<sup>(٢٥)</sup>

وهذه الأبيات رغم بساطتها وضعف الصورة الشعرية فيها إلا أن تكرار بعض الصيغ اللفظية جاءت موحية بصدق العاطفة في حركة إيقاعية سريعة على مجزوء الكامل المذال. تتضح فيها العاطفة الممزوجة بالصدق وفق رؤية شعرية يتشكل من خلالها وعي الشاعرة بحرمة مكة، وأهمية هذه الحرمة، والحرص على ابنها أن يقع في شيء من محاذير الظلم والبغي في البلد الحرام الذي أمنت فيه جميع الأحياء، قبل أن يصبح أهلاً للسكن وقبل أن تبني على أديمه المنازل والدور.

ولم يدم الأمر في مكة لخزاعة ولم يتعظ زعماءها بما حدث لجرحهم، فقد أدى بهم بغيتهم في الحرم إلى أن قام (قصي بن كلاب) بانتزاع مكة من الخزاعيين في منتصف القرن الخامس الميلادي، وأصبح المسئول عن حجابة الكعبة وولاية أمر مكة، وهنا بدأت سيطرة قريش على مكة بشكل عام والكعبة بشكل خاص.

يقول قصي بن كلاب مفاخراً:

أَنَا ابْنُ الْعَاصِمِينَ بَنِي لُؤَيٍّ	بِمَكَّةَ مَوْلَدِي وَبَهَا رَبِيَّت
لِي الْبَطْحَاءُ قَدْ عَلِمْتَ مَعَدًّا	وَمَرُوتَهَا رَضِيَّتْ بِهَا رَضِيَّتْ
وَفِيهَا كَانَتْ الْأَبَاءُ قَبْلِي	فَمَا سَوِيَّتْ أَخِي وَلَا سَوِيَّتْ
فَلَسْتُ لِفَالِغٍ إِنْ لَمْ تَأْشَلْ	بَهَا أَوْلَادُ قَيْدَرٍ وَالنَّبِيَّتْ
رِزَاحُ نَاصِرِي وَبِهِ أَسَامِي	فَلَسْتُ أَخَافُ ضَيْمًا مَا حَيَّيْتُ <sup>(٢٦)</sup>

وحق لقصي أن يفتخر بولاية البيت، وبأحقية في هذه الولاية. ولعل هذا ما أشار له (الأزرقي) في كتابه تاريخ مكة وما جاء فيها من الآثار أن قصياً هذا أول رجل من بني

كنانة أصاب ملكا ، وأطاع له قومه ، فكانت له الخطابة والوفادة والسقاية والندوة واللواء والقيادة ، فلما جمع قصيُّ قريشا في مكة سمي مجمعا وفي هذا يقول حذافة بن غانم الجمحي:

قصيُّ أبوكم كان يدعى مجمعا      به جمع الله القبائل من فهر<sup>(٣٧)</sup>

وبالمقابل نجد أحد الشعراء يقول في إسراف خزاعة في الملذات وضياعها لبيت الله الحرام :

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت      بزق خمر فبئست صفقة البادي  
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت      عن المقام وظل البيت والنادي<sup>(٣٨)</sup>

وقد قامت قريش بأعمال كانت تفاخر بها فيما يتعلق بأمر مكة ، فكانت تتحمل إطعام الجياع من أهلها ، وكان هاشم وحده يقوم بتلك الأعباء كما يبين ذلك وهب بن عبد قصي في قوله:

تحمل هاشم ماضاق عنه      وأعيانا أن يقوم به ابن بيض  
أتاهم بالفرائر متآفاتٍ      من أرض الشام بالبر النفيس  
فاوسع أهل مكة من هشيم      وشباب الخبز باللحم الغريض<sup>(٣٩)</sup>

وقد نقلت المصادر أن رجال قريش في عصر ما قبل الإسلام كانوا يقومون بإغاثة الملهوف وحماية المظلوم في مكة مما رفع شأن هذه القبيلة في نظر قبائل العرب قاطبة ، فلم ينازعهم أحد على أمر مكة ، وقد أخذت قريش تعمل على حسن الجوار ، وخدمة البيت ، فدخلت خزاعة في طاعتها بعد ذلك ولم تنافسها قط على سلطان مكة ، كما أن مكانة قريش في الجاهلية واحترام قبائل العرب في طول الجزيرة

وعرضها لها ، جعلت الأمر لا يبدو غريبا عندهم حينما بعث الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - من قريش ومن أشرف بيوتها نسبا ، وفي تقديره أن قريشا لو أسلمت فورا وآمنت بالنبي - صلى الله عليه وسلم - حين بعثته ، وآزرته ولم تكذبه لدخلت قبائل العرب الأخرى في الإسلام تباعا ، وقد وجدنا قبيلة خزاعة التي بقيت في حلف قريش بعد سيطرتها على مكة تختار جانب النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد صلح الحديبية من منطلق الحلف القديم الذي بين هاشم وهذه القبيلة. وفي هذا يقول حسان بن ثابت الأنصاري:

فلما هبطنا بطن مرو تخزعت	خزاعة منا في حلول كراكر
حموا كل واد من تهامة واحتموا	بسمر القنا والمرهفات البواتر
فكان لها المرباع في كل غارة	تشن بنجد والفجاج العوابر
خزاعتنا أهل اجتهد وهجرة	وأنصارنا جند النبي المهاجر <sup>(٤٠)</sup>

ومن المواقف التي سجلها الشعر لقريش في مكة قبل بعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقوفهم مع الغريب المظلوم حتى يأخذ مظلّمته ، وقد قرأنا قصة حلف الفضول الذي حضره الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولما يوحى إليه بعد ، وسبب هذا الحلف أن رجلا من زبيد باليمن قدم مكة بتجارة له فاشتراها منه (العاصي بن وائل) ثم حبس ثمنها مما جعل الرجل اليماني يستعدي عليه الأحلاف من قريش فأبوا أن يعينوه على العاصي لمكانته فيهم ، فما كان منه إلا أن صعد جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، وصاح بأعلى صوته قائلا:

يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعته	ببطن مكة نائي الدار والنفر
إن الحرام لمن تمّت حرامته	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر
وأشعث محرم لم تقض حرمة	بين المقام وبين الحجر والحجر
أقائم من بني سهم بذمتهم	أو ذاهب في ظلال مال معتمر <sup>(٤١)</sup>

ونحن نلاحظ أن الشاعر قد ركز على الجوانب الدينية المرتبطة بالكعبة والحرم فقد ذكر المقام ، والحجر والحجر ، لما لهذه الأسماء من مهابة وإجلال عند قريش من خلال نبذة الشكوى وصرخة الاستغاثة ، وما كان هذا الرجل المظلوم ليفعل ذلك لولا علمه بأن قريشا سوف يستجيب عقلاؤها لندائه من واقع مسئوليتهم عن الحرم وتأمين الأمن لمن يفد إليه ، ورد المظالم والحقوق فيه لأهلها ، وتذكر بعض المصادر أن (قيس بن شيبه السلمي) ابتاع بمكة متاعا من (أبي بن خلف) ، فلواه وذهب بحقه ، فاستجار برجل من بني جمح فلم يجره فقال :

يآل قصي كيف هذا في الحرم  
وحرمة البيت وأخلاق الكرم  
أظلم لا يمنع مني من ظلم<sup>(٤٢)</sup>

فلما بلغت هذه الأبيات (العباس بن مرداس السلمي) ، وكانت له قرابة بقيس بن شيبه السلمي أجابه بأبيات يبين له الطريقة التي عليه أن يسلكها لاسترداد حقه قائلا:

إن كان جارك لم تتفعلك ذمته	وقد شربت بكأس الذل أنفاسا
فأت البيوت وكن من أهلها صددا	لاتلق ناديتهم فحشا ولا باسا
وتم كن بفناء البيت معتصما	تلق بن حرب وتلق المرء عباسا
قرمي قريش وحلا في ذؤابتها	بالمجد والحزم ما عاشا وما ساسا
ساقى الحجيج وهذا ياسر فلج	والمجد يورث أخماسا وأسداسا <sup>(٤٣)</sup>

وبعد هذا اجتمعت هاشم وزهرة وتيم في دار (عبد الله بن جدعان) ، وكان معهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته ، وتعاهدوا على أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي ما عليه ، فسمي هذا الحلف حلف الفضول ، ثم جاءوا إلى



العاصي بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي وردوها كما ردوا مظلمة السلمي من أبي بن خلف ، وقد أثنى الرسول - صلى الله عليه وسلم - على هذا الحلف بعد بعثته وقال: لو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت<sup>(٤٤)</sup>.

وفي هذا الحلف يقول الزبير بن عبد المطلب مشيدا به وبمن قاموا عليه:

حلفت لنعقدن حلفا عليهم	وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا	يُعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا	أباة الضيم نمنع كل عار

وقال أيضا في هذا الشأن :

إن الفضول تحالفوا وتعاهدوا	ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا	فالجار والمعتريهم سالم <sup>(٤٥)</sup>

ومن الأحداث التي أخذت طابعا سياسيا ودينيا ، وعظمت هذه البلدة بعدها عند العرب حملة أبرهة لغزو مكة وهدم الكعبة ، وكان ذلك في القرن السادس الميلادي<sup>(٤٦)</sup> فلقد أصيب مشروع أبرهة الرامي إلى هدم الكعبة والاستيلاء على مكة بإخفاق ذريع حينما قدر الله - سبحانه وتعالى - أن يحمي بيته وحرمة من أن يدنسه هؤلاء الأحباش النصاري الذين أرادوا ربط اليمن ببلاد الشام لجعل بلاد العرب في جانبها الغربي والجنوبي تحت حكم النصرانية ، وبذلك يتم للروم تأمين خطوطهم الاقتصادية مع الأحباش في اليمن وهم جميعا يدينون بالنصرانية ، ولكن تدخلت عناية الرحمن وقدرته فحمى سبحانه وتعالى بيته الحرام وأهلك الأحباش ، وأصبحت مكة التي أريد هدمها هي التي هدمت - بإذن الله تعالى - ملك الحبشة في اليمن وملك من جاء بعدهم لنجدة أهل اليمن وملك البيزنطيين في بلاد الشام والفرس في العراق وفي كل مكان<sup>(٤٧)</sup>.

وقد تناقل الشعراء خبر الفيل، وهزيمة أبرهة وزاد اعتزاز العرب بهذا البيت الذي حماه الله تعالى ورد عنه كيد الأعداء، وقد كان لهذه الحادثة صداها في تاريخ هذه البلدة المباركة حيث عظمت قناعة العرب بقداسة هذا البيت ومهابته كما زاد شرف قريش وعزتها عند القبائل العربية دون إستثناء. يقول عبد الله بن الزبيري:

تتكلوا عن بطن مكة إنها	كانت قديما لا يرام حريمها
لم تخلق الشعري ليالي حرمت	إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها مارأى	ولسوف ينبي الجاهلين عليها
ستون ألفا لم يؤبوا أرضهم	ولم يعيش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم	والله من فوق العباد يقيمها <sup>(٤٨)</sup>

وكان (نفيل بن حبيب الخثعمي)، وهو زعيم قبائل خثعم حينذاك، قد وقف هو وقبائله خثعم ومن تبعهم من قبائل شهران وناهس في وجه أبرهة، وأرادوا منعه من الوصول إلى الحرم ولكن أبرهة أسره وألزمه بالمسير معه إلى مكة، وقد شهد نفيل حادثة هلاك هذا الجيش فقال بعد عودته يصور الموقف :

ألا حييت عنا ياردينا	نعمناكم مع الأصباح عينا
أتانا قابس منكم عشاء	فلم يقدر لقابسكم لدينا
ردينة لو رأيت ولا تريه	لدى جنب المحصب مارأينا
إذا لعذرتني وحمدت رأيي	ولم تأس لما قد فات بينا
حمدت الله إذ عاينت طيرا	وخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل	كأن عليّ للحبشان دينا <sup>(٤٩)</sup>

أما (أمية بن أبي الصلت الثقفي) فقد قال شعرا في شأن حادثة أصحاب الفيل صوّر فيها وضوح آيات الله تعالى، والتي من أهمها حادثة الفيل، وكيف حمى الله تعالى الكعبة ومكة المكرمة من صلف الأحباش فقال :

مايماري بهنّ الا الكفور	إن آيات ربنا باقيات
ظل يحبو كأنه معفور	حبسَ الفيل بالمغمس حتى
من صخر ككب محدود	لازما حلقة الجران كما قطر
ملاويث في الحروب صقور <sup>(٥٠)</sup>	حوله من ملوك كندة أبطال

وكان لمكة مكانة قدسية عند العرب منذ عهد قديم، وتأكدت هذه المكانة أكبر بعد حادثة الفيل، فكانوا لا ينفرون صيد الحرم ولا يؤذونه<sup>(٥١)</sup>. يصور هذا عمرو بن مضااض الجرهمي بقوله :

ونبكي لبيت ليس يؤذى حمامه	تظل به أمنا وفيه العصافر
وفيه وحوش لاتزال أبيّة	إذا خرجت منه فليست تغادر <sup>(٥٢)</sup>

ويؤكد هذا الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني بقوله :

والمؤمن العائدات الطير يمسحها	ركبان مكة بين الغيل والسعد
ماقلت من سيء مما أتيت به	إذا فلا رفعت سوطي الى يدي <sup>(٥٣)</sup>

وكان عرب الجاهلية يحرمون غزو الحرم والقتال فيه، وشاهد ذلك قول (حرب بن أمية) (لأبي مطر الحضرمي) يدعوه إلى حلفه ونزول مكة ليأمن بعيدا عن مواطن الخوف:

أبا مطرٍ هلمَّ إلى صلاح	فتكفيك الندامى من قريشٍ
وتأمن وسطهم وتعيش فيهم	أبا مطر هُديت لخير عيشٍ
وتسكن بلدة عزّت قديما	وتأمن أن يزورك ربّ جيشٍ <sup>(٥٤)</sup>

والمتتبع تاريخ العرب قبل الإسلام - وبخاصة قريش - يجد أنهم كانوا يتناهون عن الظلم في مكة، وكان ذلك شريعة عامة، وقاعدة مرسومة لايحيدون عنها، وإذا حدث اعتداء على النفس أو المال في مكة. فإن ذلك يكون من النادر، ولا يمدون حساب إما من أحلاف قريش، وإما من مؤسسي حلف الفضول. وربما نذروا أبناءهم لخدمة الكعبة، فقد أورد الأزرقى في أخبار مكة أن امرأة من قبيلة جرهم تزوجها (أخزم بن العاص)، وكانت عاقرا، فنذرت إن رزقت غلاما أن تتصدق به على الكعبة يخدمها ويقوم عليها، فولدت غلاما وتصدقت به عليها، فكان يخدمها في الدهر الأول مع أخواله من جرهم، وولي الإجازة بالناس لمكانه من الكعبة، وكان اسمه (الغوث بن أخزم بن العاص) وقالت أمه حين أتمت نذرها:

إني جعلت ربّاً من بنيّه	ربيطّة بمكة العليّة
فباركن لي بها إليه	واجعله لي من صالح البريه <sup>(٥٥)</sup>

وعندما بُعث النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وقام بنو هاشم بحمايته تحالفت قريش ضدهم وكانت تلك المحالفة مؤلفة لبني هاشم مما جعل (أبا طالب) عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - يندد بتلك المحالفة الظالمة من قصيدة طويلة قائلاً:

فلما رأيت القوم لاوّد فيهم	وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى	وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة	وأبيض غضب من تراث المعاول

<p>وأمسكت من أثوابه بالوصائل لدى حيث يقضى حلفه كل نافل علينا بسوء أو ملح بباطل ومن ملحق في الدين مالم نحاول وبالله إن الله ليس بغافل إذا اكتفوه بالضحى والاصائل على قدميه حافيا غير ناعل وهل من معيذ يتقي الله عادل ونضعن إلا أمركم في بلابل ولما نطاعن حوله ونناضل ونذهل عن أبنائنا والحلائل لدينا ولا يعنى بقول الأباطل ودافعت عنه بالذرا والكلال<sup>(٥٦)</sup></p>	<p>وأحضرت عند البيت أهلي وأخوتي قياماً معاً مستقبلين رتاجه أعوذ برب الناس من كل طاعن ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة وبالبيت حق البيت من بطن مكة وبالحجر المسود إذ يمسخونه وموطئ إبراهيم في الصخر ربطة فهل بعد هذا من معاذٍ لعائذ كذبتهم وبيت الله نترك مكة كذبتهم وبيت الله يبزي محمد ونسلمه حتى نصرع حوله لقد علموا أن ابننا لا مكذب حدثت بنفسى دونه وحميته</p>
--	--

وتظهر في هذه القصيدة عقيدة الشاعر في أثناء القسم حيث لم يعتنق الإسلام، ولكن عاطفته تبدو في هذه الأبيات صادقة، وأي صدق يتجلى أكثر مما هو كائن في وصفه للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بالصدق والبعد عن قول الفحش والباطل. وأي صدق أيضاً أكثر مما يؤكد الشاعر في هذه الأبيات عندما أستعاذ بالله أولاً من كل طاعن وصاحب باطل ذاكر البيت ومكة والحجر الأسود ومقام إبراهيم ليؤكد كل هذا بالقسم أنهم لن يتركوا محمداً - صلى الله عليه وسلم - نهبا للأعداء من قريش ولن يسلموه. ولقد سجل التاريخ هذا الموقف الشجاع لأبي طالب، وكان القسم بالبيت عند عرب الجاهلية عظيماً، وإذا أراد الشاعر أن يؤكد أمراً أو يقر حقيقة أقسم برب البيت أو بالبيت كما يظهر من قول زهير بن أبي سلمى:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجهرهم<sup>(٥٧)</sup>

وقسم الشاعر هنا - رغم ما فيه من محاذير عقديه - يدل دلالة قاطعه على مكانة مكة وبيت الله الحرام فيها، هذه المكانة التي عرفها عرب ما قبل الإسلام. ومكة كما يرى (الدكتور يوسف خليف)، بدأت عصرها الذهبي بنزول قصي ومعه قبيلة قريش فيها بعد أن أجلوا خزاعة عنها. وزاد من تعلق العرب بمكة وارتباطهم الروحي بها ما كانوا يرونه من تغلغل المسيحية واليهودية في بعض مناطق جزيرتهم، وهو تغلغل كانت القبائل العربية تنظر إليه في شيء من الريبة، وزاد من ارتفاع هذه المكانة ما كان كذلك من عجز أبرهة قائد الجيش الحبشي من دخولها عام الفيل مابين سنتي ٥٧٠ - ٥٧١ من الميلاد في أيام عبد المطلب جد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -<sup>(٥٨)</sup> وعندها ارتفع شأن مكة وزادت قداستها في نفوس العرب وأصبحت مطمح أنظارهم ومعقد آمالهم، والمدينة الأولى في جزيرتهم التي تتركز فيها مثالية الدين والسياسة والتجارة جميعا، ومن هنا أشرقت الشمس من بين جبال مكة إيذانا ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين النبي القرشي محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث أصبحت مكة مهياة لهذا الحدث العظيم وهذا الشرف الكبير للعرب عندما أصبحوا يشكلون نقطة هامة لها تأثيرها في الحضارة الإنسانية كما يقول غوستاف لوبون "لا يمكن أن نصف الأمة العربية جميعها في الجاهلية بأنها أمة جهل قد عزلت تماما عن العالم وعاشت غارقة في بداوتها، بما فيها من الفوضى والوحشية، وأنه لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل الإسلام، إذ لو لم يكن للأمة العربية آنذاك قدرة على التفكير والإبداع، والتأثر والتأثير لما كانت أهلا لتقبل رسالة السماء وظهور آخر الأنبياء محمد - صلى الله عليه وسلم - من العرب، ولما استطاعوا في فترة وجيزة من تكوين دولة ذات كيان عم عدلها أرجاء العالم في فترة قياسية"<sup>(٥٩)</sup>.

وعندما نقف عند النصوص الشعرية التي وردت في ثنايا هذا البحث نجد أنها قد نظمت في لغة واحدة تكاد تكون لغة قريش، وأن هذه الأشعار تتميز بالخطابية والارتجال وضعف الصورة الشعرية، ووجود بعض الهنات العروضية في هذه الأشعار التي يغلب عليها الطابع الأنبي والمباشرة وقصر النفس، وهذا ما يعطيها صدق العاطفة والمقصد. ومن المعلوم للنقاد والرواة أن الشعر المكي قبل الإسلام لم يكن من حيث الكثرة يوازي شعر القبائل الأخرى في طول الجزيرة وعرضها.

وفي اعتقادي أن قريشا في هذه الحقبة الزمانية التي سيطرت فيها على مكة أصبحت تهتم بأمر البيت وبالجانب الديني والاقتصادي أكثر من اهتمامها بالشعر، كما أنه لم يكن هناك قبائل أخرى تنافسها على السيادة في مكة، فانتفت المناقضات الشعرية في تلك الفترة بين شعراء قريش وسواهم من شعراء القبائل الأخرى، ولم نر شعراء قريش يتحركون إلا بعد بعثة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - وتأكد هذا أيضا بعد وقعة بدر وهزيمة قريش فيها.

وباختصار شديد نستطيع القول: أن الشاعر المكي في هذه الحقبة الزمانية كان يمارس عمله الفني في غير تكلف أو تصنع، وفي غير عناء ولا جهد، فهو يعبر عن نفسه تعبيراً مباشراً ينقل فيه إحساساته ويصور مشاعره، ويرسل العبارات كما تخطر على ذهنه دون أن يبذل في سبيل ذلك جهداً أو مشقة. ومن هنا كان الشعر المكي في هذه الفترة عفويًا طبيعيًا قريب التناول لا نرى فيه أثراً للتكلف وإن كان لم يسلم من بعض المحاذير العروضية التي نجدها في القليل من الأبيات أو المقطعات الشعرية.<sup>(٦٠)</sup> وربما كان من أسباب قلة شعر قريش عدم اهتمام الرواة به لأنه كان يتناول المسلمون قبل فتح مكة فأهملوا روايته.

## نتائج البحث :

بعد هذه التطوافة السريعة والوقفات القصيرة عن مكة في عصر ما قبل الإسلام من خلال استقراء بعض مصادر التاريخ والشعر بشكل خاص يمكن تسجيل النتائج الآتية:

١. وجود مكة المكرمة كمكان له أهمية دينية واقتصادية وسياسية عند العرب منذ عهود قديمة، وقد تأكدت هذه المكانة بعد هجرة إبراهيم وزوجه وابنه - عليهم السلام - إلى مكة، وإسكان هاجر وابنها إسماعيل - عليهما السلام - في هذا الوادي المقفر.
٢. تعاقب عدد من القبائل في السيطرة على مكة بعد أن نبع ماء زمزم وبنى إبراهيم وإسماعيل البيت، وارتفع شأن مكة عند جميع عرب الجزيرة العربية دون استثناء.
٣. وقوف جميع القبائل العربية ضد حملة أبرهة على مكة، وإن كان ضعف تلك القبائل وتفرقها لم يمكنها من مواجهته عسكرياً وهزيمته باستثناء قبائل خثعم وشهران وناهس.
٤. لم يكن هدف حملة أبرهة على مكة هدم البيت فقط، بل كانت هناك أهداف سياسية ودينية واقتصادية غير معلنة تتلخص في نشر النصرانية في الجنوب الغربي للجزيرة العربية للربط بين الأحباش في اليمن والدولة البيزنطية - وهم يدينون جميعاً بالنصرانية - وكذلك تأمين القوافل التجارية بين بيزنطة واليمن عن طريق مكة.
٥. زيادة اهتمام العرب بالبيت وبمكة بعد هزيمة الأحباش وحماية الله سبحانه وتعالى لبيته الحرام.
٦. ضعف الصورة الشعرية عند شعراء مكة في هذه الفترة وغلبة الجانب الخطابي والمباشرة وقصر النفس على جميع الأشعار التي قيلت آنذاك.



٧. اهتمام أهل مكة - قريش خاصة - بالجوانب الدينية والاقتصادية والسياسية مما جعل حظهم من الشعر قليلا عندما بدأت رواية وتدوين أشعار القبائل الأخرى بعد الإسلام، وربما أن الرواة قد أهملوا شعر قريش لما فيه من النيل بالمسلمين قبل فتح مكة.

٨. إن ضالة الميراث الشعري لدى المكيين جعلهم يقابلون شعر عمر بن أبي ربيعة فيما بعد بالترحيب والحفاوة برغم ما تضمنه من فجور ومجون.

---

## الهوامش والتعليقات:

١. المنصوري، جريدي سليم، الرمزي والروحي والمقدس، مجلة علامات، ع ١٣ ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ، ص ١٠٠٢
٢. سورة إبراهيم، الآية ٣٧
٣. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم - الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء. عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ٣٤٣/١
٤. المصدر السابق ٣٤٢/١ - ٣٤٥
٥. سورة الفتح، الآية ٢٤
٦. سورة آل عمران، الآية ٩٦
٧. سورة التين، الآية ٣
٨. سورة الأنعام، الآية ٩٢
٩. السباعي، أحمد، تاريخ مكة. دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ط٦، ١٤٠٤ هـ، ١٥/١
١٠. معجم البلدان ١٨١/٥ "مكة"
١١. تاريخ مكة للسباعي ١٥/١ - ١٦، وكذلك يراجع، غريب، زكي عابدين، الحياة الأدبية في مكة في العصر الجاهلي حتى صدر الإسلام، طبعة دار المعارف بمصر ( ط١ ) ١٩٨٣ م ص ١٩ وما بعدها .
١٢. تاريخ مكة للسباعي ١٦/١ وانظر كذلك، الشريف، أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي (ط٢) ص ٩٥، وانظر الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم، نجيب البهيبيتي ص ٣١ - ٥١
١٣. وإن كان بعض المؤرخين يرى أن العمالقة هم أول من سكن مكة. يراجع في هذا السياق العصامي المكي، عبد الملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٤٤/١ وما بعدها وكذلك ينظر الأزرق، محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تعليق رشدي صالح، طبعة ١٣٥٧ هـ، ٢٤/١
١٤. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف " ط٤ " ٢٥١/١ وما بعدها
١٥. سورة البقرة الآية ١٢٧
١٦. سورة الحج الآية ٢٧ وانظر في أمر بناء البيت. قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي. ص ١٣١ - ١٣٢ .
١٧. سمط النجوم العوالي، ١ / ١٤٧ - ١٤٨
١٨. الأندلسي، ابن سعيد، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبدالرحمن. مكتبة الأقصى، ١٩٨٢، ٢٩٥/١ - ٢٩٦

١٩. نابت. هو أكبر أبناء إسماعيل - عليه السلام -
٢٠. يراجع في أحداث فتح مكة المصادر التالية :
  - تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٤٢/٣ - ٨١
  - الكامل في التاريخ، لابن الأثير ٢ / ١١٦ - ١٣٤
  - البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٢٧٨ - ٣٢٢
  - السيرة النبوية لابن هشام، وبهامشه الروض الأنف للسهيلي ٤ / ٨٤ - ١٢٠
  - سيرة النبي العربي محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ٢ / ١٣٤ - ١٧٦
٢١. سورة البقرة الآية ١٢٦
٢٢. سورة آل عمران، الأيتان ٩٦، ٩٧
٢٣. النار وطقوس الثقافة، ص ٤٣
٢٤. الرمزي والروحي والمقدس - مرجع سابق ١٠٠٣
٢٥. الحياة الأدبية في مكة ص ١٣١
٢٦. الرشيد، ناصر بن سعد، سوق عكاظ تاريخه ونشاطاته وموقعه، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ. ص ٧١
٢٧. الحياة الأدبية في مكة - مرجع سابق ص ١٣٣
٢٨. الحموي، ياقوت، معجم البلدان " مكة "
٢٩. سمط النجوم العوالي ١ / ١٨٢
٣٠. البداية والنهاية، لابن كثير ٢ / ١٨٦ - ١٨٧
٣١. الحياة الأدبية في مكة في العصر الجاهلي. ص ١٥٨.
٣٢. يقصد الشاعر (بالمأزمين) مكانا في مكة. قال عياض : المأزمان مهموز مثني وهما جبلان في مكة وليسا من المزدلفة، ويرى بعض أصحاب اللغة أن المأزمين هما مضيقا جبلين والواحد مأزم. أنظر معجم البلدان ٥ / ٤٠ " مأزم " وسمط النجوم العوالي ١ / ١٨٥
٣٣. معجم البلدان ٥ / ٤٠ ط مأزم ط وسمط النجوم العوالي ١ / ١٨٥
٣٤. سورة الحج آية ٢٥
٣٥. الروض الأنف للسهيلي ١ / ٤٠ - ٤١ ، ٩٩ ، وانظر شاعرات العرب، عبد البديع صقر ١٥٣ - ١٥٤
٣٦. سمط النجوم العوالي ١ / ١٦١ ، ورزاح المذكور في البيت هو رزاح بن ربيعة، وهو أخو قصي بن كلاب لأمه .
٣٧. الأوائل، لأبي هلال العسكري ١ / ٤٢ - ٤٧
٣٨. المصدر السابق ١ / ٤٣

٣٩. تاريخ الطبري ٢/ ٢٥٣، ونلاحظ اختلاف حركة الروي في البيت الرابع كما نلاحظ أيضا ضعف الصورة  
البيانية في هذا الشعر بشكل عام.
٤٠. ديوان حسان بن ثابت، ص ٣٨٦، طبعة دار المعارف بمصر (د.ت)
٤١. الحياة الأدبية في مكة ص ١٤٩
٤٢. هامش ديوان العباس بن مرداس ص ٧٥
٤٣. ديوان العباس بن مرداس ص ٧٥
٤٤. الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٥٧٠ والروض الأنف ١/ ١٥٥ - ١٥٨
٤٥. الروض الأنف ١/ ١٥٦ - ١٥٧
٤٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/ ٥٠٤
٤٧. المصدر السابق ١/ ٥٠٣
٤٨. ديوان عبد الله بن الزبير، جمع وتحقيق عبد الحفيظ السطلي ص ٣٩١ - ٣٩٢
٤٩. الكامل في التاريخ ١/ ٣٤٥
٥٠. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق عبد الحفيظ السطلي ٣٩١ - ٣٩٢
٥١. قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، دار مصر للطباعة، الطبعة الأولى ١٩٥٨ ص ٥٠٧
٥٢. المصدر السابق ٥٠٧
٥٣. ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة دار المعارف (ط٢) ص ٥٢
٥٤. قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي ص ٥٠٧
٥٥. أخبار مكة ١/ ٢٢١
٥٦. طبقات فحول الشعراء، لابن سلام ١/ ٢٤٤ - ٢٤٥، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني. وقصة الأدب  
في الحجاز في العصر الجاهلي ٣٣١ - ٣٣٢ والمزهر للسيوطي ١/ ١٧٩
٥٧. ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة - بيروت  
(ط٣) ١٩٨٠م ص ١٤
٥٨. يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر (د.ت) ص ٦٣ - ٦٥
٥٩. لوبون، غوستاف. حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، طبعة دار إحياء الكتب العربية، ص ٨٧ - ٨٩
٦٠. دراسات في الشعر الجاهلي، ص ٧٣

## المراجع :

١. ابن أبي سلمى، زهير. ديوان، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م
٢. ابن أبي الصلت، أمية. ديوان، تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي، توزيع مكتبة أطلس بدمشق الطبعة الثالثة (د.ت)
٣. ابن الأثير، محمد عبد الكريم. الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨١م
٤. ابن الزبير، عبد الله. ديوان جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١ - ١٩٨١م
٥. أبو الفداء، الحافظ بن كثير. البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م
٦. الأزرقى، محمد بن عبد الله. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تعليق رشدي صالح، طبعة ١٣٧٥هـ.
٧. الأندلسي، ابن سعيد. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، الأردن، ١٩٨٢م
٨. الأنصاري، حسان بن ثابت. ديوان، تحقيق الدكتور سيد حنفي حسنين، طبعة دار المعارف بمصر (د.ت)
٩. البهيتي، نجيب محمد. الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
١٠. التاجي، أحمد. سيرة النبي العربي محمد - صلى الله عليه وسلم - مطبعة الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
١١. الجمحي، محمد بن سلام. طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثانية.
١٢. جواد، علي (دكتور). المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، طبعة بغداد الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
١٣. الحموي، ياقوت بن عبد الله معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٩هـ.
١٤. خليف، يوسف (دكتور). دراسات في الشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة (د.ت)
١٥. الذبياني، النابغة (الشاعر). ديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثانية (د.ت).
١٦. الرشيد، ناصر بن سعد (دكتور). سوق عكاظ، تاريخه ونشاطاته وموقعه. الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.
١٧. السباعي، أحمد. تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، مطبوعات نادي مكة الثقافي، الطبعة السادسة ١٤٠٤ هـ.
١٨. السلمي، العباس بن مرداس. ديوان، جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري، طبعة بغداد ١٩٦٨م.

١٩. السهيلي، عبد الرحمن بن أحمد. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، مطبوعات مكتبة عباس شقرون. القاهرة ١٣٩١هـ.
٢٠. السيوطي، الحافظ جلال الدين. المزهري في علوم اللغة، تحقيق جاد المولى وآخرين، طبعة الحلبي (د.ت)
٢١. الشريف، أحمد إبراهيم. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية (د.ت).
٢٢. صقر، عبد البديع. شاعرات العرب، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م.
٢٣. الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر. الطبعة الرابعة (د.ت)
٢٤. عامر، فتحي أحمد. في مرآة الشعر الجاهلي دراسة فنية تحليلية، طبعة منشأة المعارف بالإسكندرية (د.ت)
٢٥. عبد الجبار، عبد الله وخفاجي، محمد عبد المنعم. قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، دار مصر للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٨ م.
٢٦. العسكري، أبو هلال. الأوائل، تحقيق الدكتور وليد قصاب، طبعة دار العلوم، الرياض. الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م
٢٧. العصامي المكي، عبد الله بن حسين. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٠ هـ.
٢٨. غريب، زكي عابدين. الحياة الأدبية في مكة في العصر الجاهلي حتى صدر الإسلام، طبعة دار المعارف بمصر. الطبعة الثانية (د.ت)
٢٩. لوبون، جوستاف. حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة الحلبي بمصر. الطبعة الثانية ١٩٥٦ م.
٣٠. المنصوري، جريدي (دكتور). الرمزي والروحي والمقدس، مجلة علامات ع ١٣ ربيع الآخر، ١٤٢٥ هـ. والنار في الشعر وطقوس الثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب (ط١) ٢٠٠٢ م.

## **Makkah Al-Mukarramah in the Old Period: A Reading in History and Poetry**

**Zafer A. Al-Shihri**

Department of Arabic, College of Education, King Faisal University  
Al-Hassa, Saudi Arabia

### **Abstract:**

This paper focuses on Makkah in the pre-Islamic period. It first introduces the semantic and referential meaning of the Arabic word "Makkah", showing the sanctity of the place, life and the living in this city and its vicinity. The paper traces the names of this spiritual city as they are used in The Quran and as they occur in historical references and chronicles. This covers the beginnings of the city, the construction of the Shrine of Ibrahim, the history of some Arab Makkah tribes and the building of the Ka'ba, and the emergence of Zamzam water source. The paper also focuses on the entitlement of the tribe of Quraish to be the custodian of the Holy Shrine of Ka'ba and the impact of being the Prophet Mohamed is from an influential family amongst the tribe of Quraish.

The paper studies a collection of poems which document important events like the ejection of the tribe of Jurhum from Makkah by the tribe of Khuza'a, the reach of Quraish to prominence, the pact of Al-Fudhoul, the event of the Elephant and the protection of Hashem clan to Prophet Mohamed when he advocated Islam, the new religion. The paper also sheds some light on some poems which praise the greatness and holiness of Makkah. The paper concludes with the main results of reading of these poems and events.

---